

## إستراتيجية التضامن في خطاب سيدنا إبراهيم إلى قومه مقاربة تداولية

شفيقة طوبال، أستاذة مؤقتة

جامعة محمد الصديق بن يحيى-جيجل (الجزائر)

### Summary :

This article reveals the solidarity strategy in the dialogue of The Prophet Abraham (Peace be upon him) with his people, which is clearly stated in the verses of the Holy Quran, namely: “Mary”, “The Prophets” and “Assafat” (Those drawn up in ranks).

The deliberative approach, which is based on dialogical language and speech laws, has been adopted, throughout my study, in order to undoubtedly identify the reality of linguistic use and its relationship to the psychological and social context. Additionally, I have used this approach to focus on the purposes behind the Prophet’s Abraham choice of solidarity, as a preliminary and necessary step to change the world through words.

**Keywords:** Solidarity Strategy - Dialogical Involvement - Speech Laws.

### Résumé:

Cet article révèle la stratégie de solidarité dans le dialogue du prophète Abraham (que le salut soit sur lui) d’après ce qui est cité dans la sourate de Marie, les Poètes, L’Araignée, les Prophètes , ceux qui sont placés en rangs .

J’ai adopté l’approche, précisément l’implicative conversationnelle et les lois du discours.

L’objectif principal est sans doute, de découvrir la réalité de l’usage linguistique et son rapport avec le conteste psychique et social ainsi les raisons du choix du prophète Abraham pour la voie de solidarité, comme un premier pas nécessaire pour changer le monde à l’aide des mots.

**Mots clés :** Stratégie de solidarité- implicative conversationnelle- lois du discours

### الملخص

يكشف هذا المقال عن الإستراتيجية التضامنية في حوار سيدنا إبراهيم مع قومه، وذلك من خلال ما جاء في سورة مريم والأنبياء والصفافات. وقد توسلت بالمقاربة التداولية وتحديدًا بالاستلزام الحوارية وقوانين الخطاب،. ولا شك أن الهدف الأساسي هو الوقوف على حقيقة الاستعمال اللغوي وعلاقة ذلك بالمقاصد وبالسياق النفسي والاجتماعي، وكذلك دواعي اختيار سيدنا إبراهيم للمسلك التضامني، في خطوة تمهيدية وضرورية من أجل تغيير العالم بالكلمات.

**الكلمات المفتاحية:** الإستراتيجية التضامنية – الاستلزام الحوارية – قوانين الخطاب.

## مقدمة:

في ظل التحولات السريعة التي يعيشها إنسان القرن الحادي والعشرين بفعل التطور التكنولوجي الهائل وخاصة في مجال وسائل الاتصال، تزايدت الحاجة إلى الاستراتيجيات التخاطبية على جميع المستويات؛ السياسية والاقتصادية والإعلامية وحتى الاجتماعية. وأكثر من ذلك فقد أضحى الخطاب رهان قوة في عصر طغى عليه صراع الحضارات بتعبير "صامويل هانتغون"، وهو الصراع أو الصدام الذي كان من نتائجه تعميم النموذج الغربي، وتفكيك الكيانات الحضارية للشعوب باسم الحداثة، وما انبنت عليه من مبادئ مزيفة كمبدأ الحرية والإنسانية.

إن تأثيرات زمن الحداثة والعولمة والكونية الثقافية والدينية يضاعف حاجة الأمة الإسلامية اليوم إلى ضرورة العودة إلى القرآن الكريم لأنه الكتاب الذي لا تنقضي أسرارهِ وعجائبهِ، ويقينا فإن الوصف القرآني لمجموعة من الرسل بصفة "أولي العزم" يحمل الكثير من الحقائق التي يمكننا أن نستكشفها ونستفيد منها؛ فعمل عزمهم يكمن في طريقة محاورتهم لأقوامهم، واستراتيجيتهم في إقامة علاقات طيبة معهم بالقول اللين والمعاملة الحسنة، فإذا تهيأ جو الحوار، وشاعت الثقة بين الأطراف المتخاطبة، طفق كل رسول بما أتاه الله من التميز في شخصيته، يستدل محاججا، ويجادل مبرهنا، وذلك في خطاب هدفه الأول والأخير الإقناع والتأثير.

إن المجتمعات الإنسانية اليوم في أمس الحاجة إلى الحوار الجاد المثمر من أجل التقارب لا التصادم، ومن أجل التعاون وخدمة الإنسانية الجامعة للخير. وعليه يجب علينا استثمار الخطاب القرآني عامة وخطاب أولي العزم من الرسل خاصة، لعل ذلك يعود علينا بالخير الوفير.

ومما لاشك فيه أن تحليل خطاب سيدنا إبراهيم وحواره مع قومه وفق المنهج اللساني التداولي سيثري الخطاب التفسيري، ويضيف الكثير من الفائدة إلى الأمة الإسلامية في ظل صراع الهوية، وما نجم عنه من اندثار القيم. وكيف لا وقد أتى الله عليه في عديد الآيات، ومنها قوله: ﴿... قَالَ إِنِّي جَاعِلٌ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنْتَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (124) وأمرنا باتباعه فقال: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (95).

## تعريف الاستراتيجية التضامنية:

يعدّ "جورج يول" النزوع إلى استخدام صيغ التهذيب الإيجابية التي تؤكد على التقارب بين المتكلم والسامع استراتيجية التآزر "solidaritystrategy" فهي تنطوي على التماس هدف مشترك، بل حتى التماس الصداقة، ويكون ذلك باستعمال صيغ التهذيب مثل: (1)

- هلا سمحت لي باستعمال قلمك؟

- يا أخي سأكون شاكرا لو سمحت لي باستعمال قلمك.

الظاهر من أراء "جورج يول" أن استراتيجية التضامن تعكس لنا علاقة المرسل بالمتلقي، فهي استراتيجية منتقاة بهدف إحداث نوع من التقارب بين المتخاطبين، ثم إنّ ارتباط الاستراتيجية التضامنية بالعلاقات التخاطبية دفع بعض الباحثين إلى اعتبار مفهومها مفهوما معقدا، إذ ليس من اليسير كشف حقيقة العلاقات التخاطبية بين الناس، فقد يعبر الظاهر عن عكس الباطن.

ومع ذلك «يمكن الحدس بمفهوم الاستراتيجية التضامنية تقريبا بأنها الاستراتيجية التي يحاول المرسل أن يجسّد بها درجة علاقته بالمرسل إليه ونوعها، وأن يعبر عن مدى احترامه لها ورغبته في المحافظة عليها أو تطويرها بإزالة معالم الفروق بينهما، وإجماعا فهي محاولة التقرب من المرسل إليه وتقريبه»<sup>(2)</sup>.

إنّ تحليل هذا التعريف يجعلنا نقف على النقاط الآتية:

- تهدف هذه الاستراتيجية إلى تأسيس علاقة متينة بين المرسل والمرسل إليه.  
- الدافع الأول لاختيار هذه الاستراتيجية هو تأسيس البعد التضامني في العلاقات التخاطبية، ويأتي التبليغ في الدرجة الثانية، لأن انعدام التواصل أو فشل المرسل في التقرب من المرسل إليه يجعل التبليغ قصدا لا طائل من ورائه.

- إنّ الرغبة في إزالة معالم الفروق بين المرسل والمرسل إليه يترجم في الواقع رغبة المرسل في التنازل عن سلطته؛ إذ يعبر للمرسل إليه أنه في الرتبة نفسها، ممّا يدعّم البعد التضامني، ويمهّد بقوة لتبليغ المقاصد بنجاح، وذلك لأنّ حقيقة الكلام باعتباره خطابا تواصليا «ينبني على قصدين اثنين: أحدهما يتعلق بالتوجه إلى الغير، والثاني يتصل بإفهام هذا الغير»<sup>(3)</sup>، وحتى يتحقق القصد الثاني لا بد من انتقاء الاستراتيجية التخاطبية المناسبة من أجل نجاح التوجه إلى الغير، وهي الاستراتيجية التضامنية.

وقد اهتمت بهذا الجانب من التواصل البشري دراسات عديدة، لعلّ أبرزها: دراسة "براون" و"جيلمان" حول ضمائر السلطة والتضامن، ودراسة "براون" و"ليفنسون" المتعلقة بنظرية الوجه بحيث جعل الوجه هو رمز التعامل الخطابى، وحدد معايير اختيار الاستراتيجية التخاطبية بمعيار البعد الاجتماعي، ومعيار العلاقة السلطوية ومعيار القيود الثقافية. وإلى جانب ذلك دراسة "لاكوف" الموسومة بـ "منطق التأدب" وفيها اقترحت قواعد الكفاءة التداولية، "كن واضحا كن مؤدبا"، وقوانين التأدب التي وضعتها هي: قانون التعفف وقانون التغيير، وقانون التودد، وكذلك دراسة "لينيث" في كتابه أسس التداوليات "بحيث نظّر فيها لمبادئ التأدب، محاولا تجاوز مبدأ التعاون عند "جرايس"، وقد تضمنت هذه النظرية ست قواعد هي: قاعدة اللياقة، قاعدة السخاء، قاعدة الاستحسان، قاعدة التواصل، قاعدة الموافقة، وقاعدة التجانس.

ويشير الباحث "عبد الهادي بن ظافر الشهري" إلى أن الباحثين الغربيين قد التفتوا إلى دراسة هذه الاستراتيجية منذ الستينيات من القرن الماضي، بحيث أدركوا أهمية اللغة في الخطاب التعاملى. وبالمقابل «لم تتل

الاستراتيجية التضامنية حقها في الدرس اللغوي العربي بشكل مستقل، وإن كان التراث لم يخل من إشارات تطبيقية.»<sup>(4)</sup>

والحقيقة أن ما نظر الغربيون له تحت مباحث لسانية وتداولية في الستينيات من القرن الماضي كان العلماء العرب قد تطرقوا له تحت مباحث عدّة، وخير دليل على هذا أن الخطاب والحوار والجدال والتعامل عموماً في الدين الإسلامي مرتبط بالمبادئ الإسلامية والقيم الأخلاقية الجامعة.

ففي الجانب الدعوي مثلاً، وكيفما كان المرسل إليه مسلماً أو مسيحياً، مؤمناً أو مشركاً أو ملحدًا، فإنّ القاعدة الأساسية في التواصل والتوجه إلى الغير بقصد الإفهام، أو الإفهام والتأثير هي المعاملة بالحسنى حرصاً على الخير والمنفعة العامة.

وقد أشار القرآن الكريم في عديد المواضع إلى ذلك منها:

- الخطاب الإلهي الموجه إلى الرسول الكريم محمد صلّى الله عليه وسلم بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ (آل عمران: 159).

- الخطاب الإلهي الموجه إلى سيدنا موسى (عليه السلام) وأخيه "هارون" بقوله تعالى في سورة طه: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ (طه: 44)

فمنطق التأدب الذي دعت إليه "لاكوف"، ونظرية التواجه التي دعا إليها "بروان" و "ليفنسون"، كلها أعمال تلتقي مع منهج الدعوة الإسلامية، لأن التوجه إلى الغير ينطلق بادئ ذي بدء من إثارة العواطف وتحريك المشاعر والأحاسيس من خلال لطف الأسلوب، وإظهار الرأفة والرحمة بالمخاطبين، واعتماد أسلوب الموعظة الحسنة عملاً بقوله تعالى ﴿وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل: 125).

تلك هي أساليب ما يسمّى اليوم في الدراسات الغربية باستراتيجية التآزر والتضامن مع المرسل إليه، إذ لا بدّ أن يكون هذا البعد التضامني هو الأرضية الأولى التي تبنى عليها أهداف الخطاب ومقاصده.

لذلك يهدف هذا المقال إلى الكشف عن صور التآزر والتضامن في خطاب سيدنا إبراهيم بأشمل ما تكون القواعد، وأمثلة ما يكون التنظير في خطاب إلهي ليس كمثل شيء، وهو الخطاب الذي ينطوي على التشريع المعجز الذي تحني له كل التشريعات البشرية، والنظريات العلمية، ويحتوي على إشارات عميقة إلى استراتيجيات التعامل البشري، والاتصال الإنساني الذي قد يغفل عنها الإنسان مع تحديات هذا العصر.

- الاستلزام الحواري وقوانين الخطاب:

لا شك أنّ حوارات الناس فيما بينهم تنطوي على معان مباشرة ومعان غير مباشرة، والمعاني غير المباشرة هي ما يدرس تحت ظاهرة الاستلزام الحواري. وقد «لاحظ بعض فلاسفة اللغة واللسانيين التداوليين وخصوصاً "غرايس" أن جملة اللغات الطبيعية في بعض المقامات تدل على معنى غير محتواها القضيوي»<sup>(5)</sup>، ومرّد ذلك أنّ

العبارات المتلفظ بها تحمل أكثر من دلالة باعتبار السياق من جهة، وباعتبار العلاقة التخاطبية التي تربط بين المتخاطبين من جهة أخرى. فقد لاحظ "غرايس" أن تأمل الحمولة الدلالية لإجابات المتحاورين تدل في الغالب على معنيين اثنين: معنى حرفي ومعنى استلزامي، وهذه الظاهرة سماها الاستلزام الحواري "L'implication conversationnelle" (6).

وقد كانت نقطة الانطلاق عند "غرايس" «أن الناس في حواراتهم قد يقولون ما يقصدون، وقد يقصدون أكثر مما يقولون، وقد يقصدون عكس ما يقولون، فجعل كل همة إيضاح الاختلاف بين ما يقال "whatissaid" وبين ما يقصد "whatismeant". فما يقال هو ما تعنيه الكلمات والعبارات بقيمها اللفظية "face values"، وما يقصد هو ما يريد المتكلم أن يبلغه للسامع على نحو غير مباشر» (7).

فانطلاقاً من المعاني الصريحة، والمعاني المتضمنة في القول نشأت عند "غرايس" فكرة الاستلزام، ولشرح هذه الفكرة وضع نظريته «التي تنصّ على أن التواصل الكلامي محكوم بمبدأ عام، مبدأ التعاون، وبمسلمات حوارية» (8).

وقد ورد نصّ هذا المبدأ في دروسه الموسومة بعنوان "محاضرات في التخاطب"، وكذا في مقاله الشهير المعنون بـ "المنطق والتخاطب" (9)، وقد تفرّع هذا المبدأ إلى «قواعد تخاطبية مختلفة، قسمها إلى أربعة أقسام يندرج تحت كل قسم منها تحت مقولة مخصوصة وهي: الكم والكيف، والإضافة (أو العلاقة) والجهة» (10). وينصّ كل قسم على ما يلي: (11)

- مبدأ الكم "quantity": اجعل إسهامك في الحوار على القدر المطلوب، من دون أن تزيد عليه أو تنقص منه.
- مبدأ الكيف "quality": لا تقل ما تعتقد أنه غير صحيح، ولا تقل ما ليس عندك دليل عليه.
- مبدأ المناسبة "relevance": اجعل كلامك ذا علاقة مناسبة بالموضوع.
- مبدأ الطريقة "manner": كن واضحاً ومحدداً: فتجنب الغموض "obscurity" وتجنب اللبس "anliguity"، وأوجز، ورتب كلامك.

هذه المبادئ - بحسب غرايس - يمكن أن يتحقق بها التعاون بين المتكلم والمخاطب، بحيث يصلان إلى حوار مثمر منوّح المقاصد. لكن احترام قوانين الخطاب ليس بالأمر السهل، «فبعض الباحثين رأوا في مبدأ التعاون تعبيراً عن فردوس الفلاسفة "philosopher's paradisi" الذي لا يمت إلى الواقع بصلة» (12).

كما قدّم "طه عبد الرحمن" نقداً لهذه المبادئ رغم أهميتها في تطوير التداوليات، وما يمكن أن ينجم عنها من الارتقاء بالتواصل الإنساني. ويتعلّق انتقاده بإسقاط "غرايس" للجانب التهذيبي، لأن هذا الجانب قد يكون هو الأصل في خروج العبارات عن إفادة المعاني الحقيقية المباشرة (13).

وأمثلة الاستلزام الحواري في الخطاب القرآني كثيرة ومتنوعة، ومنها ما يحمله الاستفهام المجازي من قوة إنجازية حرفية، وقوة إنجازية مستلزمة، قال تعالى في سورة هود ﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (هود:51). فالفعل الكلامي ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ المكون من الجملة الفعلية يحمل القضية المتمثلة في غفلة قوم هود، المشار إليهم بضمير واو الجماعة. ولأنهم في غفلة من أمرهم كان الاستلزام المنطقي أن يحمل نبيهم رسالة إليهم على وجه الإنكار لعلمهم ينتبهون ويتعظون.

وعلى هذا الأساس كانت الحمولة الدلالية لذلك الفعل تتكون من قوة إنجازية حرفية وهي الاستفهام، وقوة إنجازية مستلزمة وهي المقصودة من الكلام، وتتمثل في الإنكار والتقريع من منظور "محمد علي الصابوني" (14) في "صفوة التفاسير"، وفي التعجب من أمر القوم من منظور سيد قطب في ظلاله (15)، وهي قوة إنجازية مستلزمة تحمل معنى رد نصيحة من لا يطلب عليها أجرا في كشاف الزمخشري. (16)

وخلاصة القول إن الاستلزام الحواري نظرية حاول من خلالها الباحثون في مجال اللسانيات التداولية أن يضعوا مجموعة من قوانين التخاطب، لعلها تتمكن من حصر مقاصد المتحاورين، وتمنعهم من الاختفاء وراء كلماتهم، وهو مطلب في غاية الأهمية لنجاح التواصل الإنساني في عصر أصبحت اللغة فيه تشكل أكبر رهان. وليس هذا الطموح لمحاولة القبض على المقاصد مطلبا حديثا بل هو مطلب الإنسان على مر العصور لحاجته إلى التواصل مع غيره مذ أن جعله الله خليفة في هذه الأرض. ثم أن هذه القواعد المتفرعة عن مبدأ التعاون" هي أقرب إلى ما أسماه الأصوليون بالمنطوق، وإن خرجنا عنها حصلنا فائدة بعيدة هي أقرب إلى ما أسموه بالمفهوم أو "المسكوت عنه" أو "دلالة الدلالة". (17)

- تجلي الاستراتيجية التضامنية من خلال قوانين الخطاب  
أولا: في سورة مريم:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (40) وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (41) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (42) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (43) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (44) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (45) قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَتْ بِي خَفِيًّا إِلَهِي يَا إِبْرَاهِيمَ لئن لَمْ تَنْتَهَ لِأَرْجَمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (46) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (47) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَفِيًّا﴾ (41-48).

إن العلاقة بين المتخاطبين لها دور أساسي في مراعاة قواعد الخطاب أو خرقها، لاسيما وأن هذه القواعد ترتبط ارتباطا وطيدا بالملفوظية، وما طرح حولها من إشكاليات متعددة، على اعتبار أن الملفوظ رهين التواصل

الشفوي «ولا بدّ عندها من مراعاة نبرات الكلام والإيماءات والحركات وأشكال التعبير المرتبطة تماما بالتعبير الكلامي بمعناه الحقيقي».(18)

ومنه فالعلاقات التخاطبية هي المؤشر على وجود استراتيجية التضامن أو انعدامها، بينما تكون نبرات الكلام والإيماءات دلائل ملموسة على مدى شدة التضامن أو ضعفه أو فتوره.

من هذا المنطلق، كان سيدنا إبراهيم (عليه السلام) شديد الحرص على مراعاة قواعد التخاطب وهو يحاور أباه، بدءاً بمبدأ التعاون الذي يتجلى أكثر من خلال قاعدتي الكيف والمناسبة، فلم يقل (عليه السلام) إلاّ الصديق، وأدلته على ذلك كثيرة، قال تعالى: ﴿... لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ (مريم:42)، وقال أيضاً: ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ (مريم:44).

فأفعال الكلام استقهما ونهيا وتقريراً ذات علاقة ومناسبة بموضوع الحوار الذي هو الدعوة إلى التوحيد، وهي أفعال ملفوظة بكيفية تضمن التواصل المنمّر والمفيد لأنها صادقة، وواضحة، وبعيدة عن اللبس والغموض. ثم إن دعوة إبراهيم (عليه السلام) هي دعوة ربانية شاملة تخاطب القلب والعقل معاً، ولهذا جمع (عليه السلام) بين قواعد التعامل ﴿يَا أَبَتِ﴾، وقواعد التواصل التي منها مبدأ التعاون.

وتنزل قوة علاقة إبراهيم بأبيه "أزر" مدعاة لحضور مبدأ التأدّب من جهة أخرى، ولربما بأكثر كثافة من كل قواعد التخاطب، فقد راعى -عليه السلام- وهو يحاوره قاعدة التعفّف بلجونه إلى طريقة الإقناع بدل الإكراه، والدليل على ذلك ابتعاده عن الأمر المباشر، واستبداله بالاستفهام الإنكاري: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ (مريم:42). كما راعى قاعدة التخيير بحيث ترك لأبيه حرية اتخاذ القرار وختم حواراً بقوله: ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ (مريم:47).

وتتجلى قاعدة التودّد بكلّ وضوح من خلال استعمال إبراهيم (عليه السلام) للأساليب والصيغ التي كشفت أكثر من ذي قبل عن رغبة إبراهيم في المحافظة على علاقته بأبيه وهدايته إلى الطريق الحق.

وأبرز الصيغ -كما رأينا- هي ﴿يَا أَبَتِ﴾، وكذلك العدول عن الأمر المباشر إلى أسلوب الحجاج استمالة للقلب والعقل معاً. كما يعد مبدأ التوجه مبدأ تداولياً لضبط الخطاب، وهو مبدأ يرتكز على صيانة وجه الغير كما صاغه "براون" و "ليفنسون" وقد اجتهد سيدنا إبراهيم منذ لحظة التلفظ الأولى في صيانة ماء وجه أبيه بحسن اختيار الألفاظ والأساليب، بحيث امتنع عن إيراد القول المهذّب، ولم يستعمل إلاّ ما يصون وجهه، ووجه أبيه، فخاطبه بوجه النحبّ والتودّد والتقرب، وتجنّب أسلوب الأمر والطلب المباشر، لما للأمر من سلطة قد تذهب بمبدأ التواضع. كما لجأ (عليه السلام) إلى اتباع خطط تخاطبية للابتعاد عن أية شبهة فآثر التلميح عن التصريح في قوله: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ...﴾ (مريم:42)، وآثر التصريح على التلميح في قوله: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ...﴾ (مريم:45).

وعندما اشتدَّ الموقف أثر الابتعاد والاعتزال، فلم يجادل أباه، ولم يناقشه، فتجلى مبدأ التواجه قولاً وفعلاً من خلال قول الله تعالى على لسانه: ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (47) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ (مريم: 47-48).

أما محاولة رصد مبدأ التآدب الأقصى الذي جاء به "ليتس" في كتابه "مبادئ التداوليات"، فنستنتج منه مايلي:

- أكثر إبراهيم (عليه السلام) من الكلام المؤدب، ولم يظهر في لحظات التلطف شيئا يدل على عكس ذلك.  
- كان حريصاً منذ بدء المحاوراة على إقناع أبيه بالتخلي عن عبادة الأصنام، وهي محاولة لجلب انسجام الذات مع الغير أو ما يسمى عند "ليتس" بقاعدة التجانس.

- تظهر قاعدة التواضع من خلال قوله تعالى على لسان سيدنا إبراهيم: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ (مريم: 43). فلم ينسب لنفسه العلم تواضعاً وتآدباً مع أبيه.

- أما فيما يخص قاعدة الاستحسان التي نصّها: «قلّل من ذمّ الغير وأكثر من مدح الغير»<sup>(19)</sup>، فهي في المنهج الربّاني لا أساس لها من الصحة، ولا داعٍ لحضورها، وحضورها ليس علامة للتآدب ولا يمكن أن يكون مدح الغير قاعدة للتآدب إلاّ بشروط، وهي الشروط التي لم تتوفر في "آزر" ولا في قومه، وعليه تتجلى تداولية الخطاب القرآني في شموليتها وبعدها، ودقّة مبادئها، وهي أوسع ممّا نظّر لها "ليتس" وغيره.

إنّها تداولية في بعدها الإعجازي تخرس أمامها الألسنة، وتكتم دونها الأفواه، فلا استحسان إلاّ ما استحسناه الله، ولا مدح لشخص إلاّ لمن مدحه الله، قال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ﴾ (الحجرات: 13).

- كما تبدو قاعدة الموافقة بعيدة عن قواعد التخاطب الربّاني، فالمرسلون هم الصّفوة من عباد الرحمن ورسالتهم إلى أقومهم موحدة لفظاً ومعنى ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾. وعلى هذا الأساس لا يمكن لسيدنا إبراهيم أن يسعى في تخاطبه مع أبيه آزر وقومه إلى موافقتهم، لأن الاتفاق الأساسي هو الاتفاق حول العقيدة، فإذا ما تحقّق هذا الشرط تحقّق مبدأ الموافقة.

ولعلّ أكثر القواعد التخاطبية حضوراً في محاوراة إبراهيم (عليه السلام) لأبيه في هذه الحلقة من سورة مريم هي القواعد التي صاغها "طه عبد الرحمن"، والتي تتعلق بقواعد التواصل والتعامل معا وتبرز على النحو الآتي:

- كان سيدنا إبراهيم يحاور أباه ليدفع عنه الضرر ويجلب له المنفعة، وهو كلام مقصود من أجل تحقيق أهداف مسطرة، وقد اقتصر على قدر الحاجة، فتخيّر الألفاظ المناسبة للسياق: قال تعالى على لسانه: ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (44) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ (مريم: 44-45).



هذا فيما يتعلق بقواعد التواصل، أما قواعد التعامل فقد احترم سيدنا إبراهيم قاعدة القصد، وقاعدتي الصدق والإخلاص، وهي قواعد في مجملها تحقق التقرب الصادق، وتجعل الاستراتيجية التضامنية واضحة في خطتها وأساليبها. قال الحق تعالى على لسان سيدنا إبراهيم: ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ (مريم:47).

ثانيا: في سورة الأنبياء:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (51) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (52) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (53) قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (54) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (55) قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (56) وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (57) فَجَعَلَهُمْ جُدَادًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (58) قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الظَّالِمِينَ (59) قَالُوا سَمِعْنَا فَتَىٰ يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (60) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (61) قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (62) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْظُرُونَ (63) فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (64)﴾

يصور القرآن الكريم في هذه السورة المشاهد الحاسمة من حلقات الدعوة إلى التوحيد، وهي المشاهد التي يُبتلى فيها إبراهيم بأشدّ العذاب لولا أن رحمة الله قد سبقت بقوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ (الأنبياء:69).

ففي سورة الأنبياء بدا سيدنا إبراهيم متعاوناً مع قومه، وكان سؤاله على قدر الحاجة: ﴿...مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ (الأنبياء:52) وبالكيفية المناسبة للسياق، فقال ما له عليه بيّنة بوضوح وترتيب وإيجاز بحيث «سمى تلك الأحجار والخشب (...) ولم يقل: إنها آلهة، واستتكر أن يعكفوا عليها في العبادة». (20)

ولربّما عدّ اللسانيون الغربيون المنظرون لمبدأ التعاون من أمثال "غرايس" و"ولسن" وغيرهما أنّ إبراهيم (عليه السلام) لم يكن متعاوناً في هذه الملفوظات التي تلفظ بها على وجه الالتباس "التماثيل"، ولربّما تعدت القدر المطلوب بإضافة ﴿الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾.

إنّ لمبدأ التعاون والتواصل والتفاعل في الحوار القرآني شأناً آخر، إذ لا تتحكم فيه لحظة التلفظ فحسب، كما هو حال الحوار في الخطاب العادي بين البشر، وإنّما الذي يحرك الحوار في القرآن الكريم هو المقصدية التي تحدد الأبعاد والتصوّرات.

وهذا البعد والتصوّر في ذهن سيدنا إبراهيم هو الذي دفعه إلى القدرة في التقدير والصرحة في الحكم، فقال "التماثيل" ولم يقل الآلهة، ولو قال: "ما هذه الآلهة" لزلت دواعي الحوار، لأنّ التلفظ بهذه الكيفية يدلّ على إيمانه بأنّ الأصنام آلهة، ثمّ إنّه لو توقف عند هذه الملفوظات: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ﴾ ولم يردف بقوله: ﴿أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾

لكان في ذلك خرق لمبدأ التعاون بخرقه لقاعدة النوع التي تنصّ على: «لتحترز الالتباس والإجمال»<sup>(21)</sup>، وعليه فقد أضاف صفة العكوف ليزيل الالتباس عن لفظة التماثل. ومنه نستنتج أن تداولية الخطاب القرآني وقواعد التخاطب أشمل وأوسع وأبعد تصورا مما حاول اللسانيون الإمام به.

وعليه فقد كان سيدنا إبراهيم في هذا الحوار مراعيًا لقواعد التخاطب بعكس القوم الذين ردوا على سؤاله بجواب غير مناسب للمقام: ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ (الأنبياء:53)، لأنهم لا يمتلكون الحجة والبرهان على عبادتهم للأوثان: «وهو جواب يدل على التحجر العقلي والنفسي داخل قوالب التقليد الميتة في مقابل حرية الإيمان وانطلاقه للنظر والتدبر، وتقويم الأشياء والأوضاع بقيمها الحقيقية لا التقليدية؛ فالإيمان بالله طلاقة وتحرير من القداست الوهمية والموروثات المتحجرة»<sup>(22)</sup>.

وإيمانه بالله أطلق فكره للنظر والتدبر، فتحرّر من قداست الآباء ورد على قومه: ﴿قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَبَاءَكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وهو ردّ بالكم والنوع المناسبين، وبالكيفية المناسبة، وبالمقال المناسب.

ويستمر الحوار إلى أن يعلن عزمه على الكيد من الأصنام، ولا يذكر سياق القصة ردّ قومه إلا بعدما نفذ الكيد فقالوا: ﴿أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (62)﴾ لتأتي إجابته: ﴿...بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطَفُونَ (63)﴾ وهي إجابة فيها خرق لقاعدة الكيف، لأن المتلفظ بهذا الكلام لم يكن صادقًا. وهذه الإجابة من وجهة نظر "بول غرايس" تعرقل استمرار الحوار وتفاعله، لأن إبراهيم (عليه السلام) قال كلامًا وهو يعلم أنه كذب.

لكن الحقيقة في الحوار القرآني أن إجابته على هذا النحو هي التي ولدت التفاعل والتواصل لأن «هذا التهكم الساخر قد هزّ قومه هزًّا، وردّهم إلى شيء من التدبّر والتفكّر»<sup>(23)</sup> قال تعالى: ﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (الأنبياء:64)

وعليه فسيدنا إبراهيم كان مراعيًا لقواعد التخاطب، رغم أنه قال شيئًا وقصد شيئًا آخر فنتج عن ذلك ما سماه "بول غرايس" بالاستلزام الحواري، وهو استلزام دُفع إليه دفعا على سبيل المحاججة، بحيث أراد أن يخاطب عقولهم لعلّ بصيرتهم تتفتح، فيتدبروا سخفهم الذي هم فيه «لكنّها لم تكن إلاّ ومضة واحدة أعقبها الظلام (...) وخفقة واحدة عادت بعدها قلوبهم إلى الجمود»<sup>(24)</sup> قال الله تعالى ﴿ثُمَّ نَكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطَفُونَ﴾ (الأنبياء:65). و كان ذلك مدعاة ليتواصل الحوار دون مبدأ التعاون، فقد أثر سيدنا إبراهيم المعاني غير المباشرة قال: ﴿... أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (66) أَفَ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (الأنبياء:66-67).

ثالثا: في سورة الصافات

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ (83) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (84) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (85) أُنْفِكَا إِلَهَةَ دُونِ اللَّهِ تُرِيدُونَ (86) فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (87) فَظَنَّرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (88) فَقَالَ إِنِّي

سَقِيمٌ (89) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (90) فَرَاغَ إِلَى آلِهِتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (91) مَا لَكُمْ لَا تَنْطَفُونَ (92) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ (93) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ (94) قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَحْتُونَ (95) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (96) قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْفُوهُ فِي الْجَحِيمِ (97) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ (98) وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿ (الصافات: 83-99).

صَوَّرَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ مَشْهَدَ الْحَوَارِ بِوَصْفِ سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ الَّذِي جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ، «وَهِيَ صُورَةٌ لِلِاسْتِسْلَامِ الْخَالِصِ (...) وَصُورَةٌ لِلنَّقَاءِ وَالطَّهَارَةِ وَالْبِرَاءَةِ وَالِاسْتِقَامَةِ، وَبِهَذَا الْقَلْبِ السَّلِيمِ اسْتَنْكَرَ مَا عَلَيْهِ قَوْمُهُ وَاسْتَبْشَعَهُ»<sup>(25)</sup>، فَبَدَأَ الْحَوَارِ بِسُؤَالِ اسْتَنْكَارِيٍّ: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (85) أَنْفَكَ آلِهَةٌ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (86) فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الصافات: 85-87).

وَبِهَذِهِ الْأَسْئَلَةُ يَحْرِقُ سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ مَبْدَأَ التَّعَاوُنِ بِتَعْبِيرِهِ عَنِ مَقَاصِدِهِ بِطَرِيقَةٍ غَيْرِ مَبَاشِرَةٍ، وَقَدْ فَضِيَ السِّيَاقُ التَّلَافُظَ ذَلِكَ، إِذْ لَمْ يَبِيقُ مِنْهُ إِلَّا هَذَا الْاسْتَنْكَارَ الشَّدِيدَ بَعْدَ لَتْمَادِي قَوْمِهِ فِي الْإِنْحِرَافِ عَنِ الْفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ. وَلَمْ يَجِدِ الْقَوْمَ الْمَلْفُوظَاتِ الَّتِي تَتَأَسَّبُ هَذَا الْمَقَامَ فَيَسْقُطُ الرَّدُّ، وَتَخْرُسُ الْأَلْسُنَةُ، لِیَأْتِي التَّعْبِيرَ الْقُرْآنِيَّ بِلُغَةٍ أُخْرَى وَهِيَ الْحَرَكَاتُ الْجَسْمِيَّةُ، أَوْ مَا يُسَمَّى فِي عِلْمِ اللُّغَةِ الْحَدِيثِ "بِعِلْمِ الْكَيْنَاتِ" قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ (الصافات: 90). «وَوَلَّى الشَّيْءَ وَتَوَلَّى: أَدْبَرَ، وَوَلَّى عَنْهُ: أَعْرَضَ عَنْهُ»<sup>(26)</sup>، أَمَا "الدُّبْرُ وَالِدُّبْرُ: نَقِيضُ الْقُبْلِ، وَدُبْرُ شَيْءٍ عَقِبُهُ وَمُؤَخَّرُهُ وَجَمْعُهَا أَدْبَارٌ...»<sup>(27)</sup>

يَتَضَحُّ مِنْ خِلَالِ هَذَا أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ عَبَّرَ بِالْحَرَكَاتِ الْجَسْمِيَّةِ عَنِ رَدِّ الْقَوْمِ عَوْضًا عَنِ الْكَلَامِ، وَلَعَلَّ ذَلِكَ يَرْجِعُ إِلَى عَجْزِهِمْ عَنِ مَجَابَهَةِ الْحُجَّةِ بِالْحُجَّةِ أَوْ كَمَا يَرَى "بِيرُودُوسِل" Ray.n.Birdwistelf أَنَّ "الْأَلْفَاظَ مَهْمَا بَلَغَتْ دَقَّتْهَا فِي الدَّلَالَةِ عَلَى الْمَعْنَى فَإِنَّهَا لَا تَقِي بِمَا يَرِيدُ الْمَتَكَلِّمُ التَّعْبِيرَ عَنْهُ، يَقُولُ فِي كِتَابَةِ "مَدْخَلٌ إِلَى عِلْمِ الْكَيْنَاتِ": «إِنَّ نِسْبَةَ الْكَلَامِ عَنِ الْمَعْنَى تَتَرَاوَحُ بَيْنَ 30% إِلَى 35% فَقَطْ»<sup>(28)</sup>.

عَلَى هَذَا الْأَسَاسِ أَسْقَطَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ فِي سِيَاقِ هَذِهِ الْقِصَّةِ رَدَّ الْقَوْمِ، وَنَقَلَ مَبَاشِرَةً مَشْهَدَ تَحْطِيمِ الْأَصْنَامِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَرَاغَ إِلَى آلِهِتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (91) مَا لَكُمْ لَا تَنْطَفُونَ (92) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ (الصافات: 91-93).

وَمَا يَلَاظُ عَلَى هَذِهِ الْمَحَاوِرَةِ أَنَّ مَبْدَأَ التَّعَاوُنِ لَمْ يَكُنْ حَاضِرًا بِالصُّورَةِ الَّتِي نَظَرَ لَهَا "غَرَايِس"، إِذْ آثَرَ سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ التَّعْبِيرَ بِالْمَعْنَى غَيْرِ الْمَبَاشِرَةِ، بَيْنَمَا فَضَّلَ السِّيَاقُ نَقْلَ الْحَرَكَاتِ الْجَسْمِيَّةِ لِلْقَوْمِ دُونَ الْمَلْفُوظَاتِ، وَلَمْ يَنْقُلْ إِلَّا قَرَارَهُمُ الْأَخِيرَ: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْفُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ (الصافات: 97).

وَقَدْ دَعَتْ "رُوبِينُ لَكُوف" إِلَى تَوْسِيعِ مَبَادِئِ اللُّغَةِ الْكَلِمِيَّةِ مِنْ خِلَالِ إِدْرَاجِ الْقَوَاعِدِ التَّدَاوِلِيَّةِ الَّتِي سَمَّيْنَاهَا قَوَاعِدَ الْكِفَاءَةِ التَّدَاوِلِيَّةِ "the rules of pragmatic competence" وَقَدْ صَاغَتْهَا فِي قَاعِدَتَيْنِ: «كُنْ وَاضِحًا وَكُنْ

مؤدبا». (29)؛ من هذا المنطلق يمكن الاستدلال على الكفاءة التداولية لإبراهيم في محاوراته لقومه من خلال حضور قاعدتي التأدب والوضوح.

أما قاعدة الوضوح فقد تبين من خلال مبدأ التعاون أنه أثر الاستلزام الحواري، بينما بدا غاضبا ضيق الصدر، عنيف الرد، على غير عادته وهو الصبور الحليم قال تعالى: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ (الأنبياء: 57). فهل خرق مبدأ التأدب بهذا العزم على تحطيم الأصنام؟

الملاحظ أنه قد خرق قاعدة التخيير بحيث لم يترك قومه يتخذون قراراتهم بأنفسهم، فعهد إلى مصنوعاتهم يحطمها ﴿فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ (الأنبياء: 58). كما أنه بمقتضى قاعدة التعفف لا يجب أن يلجأ أو يكره قومه على فعل ما، وحملا بقاعدة التودد كان يجب عليه السلام أن يظهر الودّ لقومه ويكون صديقا لهم. لكن الحقيقة أنه قد ضاق ذرعا بسخفهم، فراح يتهكم ويسخر ويستهزئ بهم وبمعبوداتهم، مفصحا عن تضجره منهم: ﴿أَفْ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (الأنبياء: 67).

ومما لاشك فيه أن القوم رأوا في هذا الفعل الذي قام به؛ وقد راغ على أصنامهم ضربا باليمين، أنه تجاوز الأدب معهم، ومع عقيدة آبائهم، فلم يجدوا غير القوة والغلظة سلاحا، ﴿قَالُوا حَرِّفُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ (الأنبياء: 68). أو ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْفُوهُ فِي الْجَحِيمِ...﴾ (الصفات: 97)، وكيف لا وقد «أخذتهم العزة بالإثم كما تأخذ الطغاة دائما حين يفقدون الحجة ويعوزوهم الدليل، فيلجئون إلى القوة الغاشمة والعذاب الغليظ». (30)

ولكن النظر إلى هذا الفعل من زاوية أخرى - فعل سيدنا إبراهيم بالأصنام - يعدّ طاعة لله تعالى، وتادبا مع قومه لأنه أراد أن ينقذهم من الضلال، ولم يقصد إهانتهم، رغم أنه قصد إهانة أوثانهم ومعبوداتهم التي ما نفعت نفسها بالدفاع، ولا نفعت غيرها بالحماية. وقد أقدم على هذا الفعل لأنه صادق مع الله، قال تعالى: ﴿وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِيقًا نَبِيًّا﴾.

وبحضور مبدأ الصدق والإخلاص يمكننا الجزم بأن قواعد التخاطب التي انتهجها سيدنا إبراهيم في هذه الحلقة الحاسمة هي القواعد المثالية في مثل المواقف التي مر بها؛ فقد لا يحتاج الموقف إلى عبارات التودد والتحبب، وقد لا يكون الظرف ظرف الصبر والأناة والحلم، ومن ذا الذي يفوق صبره وحلمه صبر وحلم إبراهيم (عليه السلام) وقد أتى عليه الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (النحل: 120).

إن قواعد التخاطب التي امتثل لها إبراهيم (عليه السلام) على وجه الطاعة والأدب هي أساليب تجسد السلوك العملي الذي قد يكون ضروريا إزاء بعض المواقف «فقد نحتاج إليها في بعض الحالات التي نشعر فيها إزاء الواقع الذي يعيشه مجتمع الانحراف». (31)

من هذا المنطلق جاء حوار مع أبيه وقومه دون مراعاة لمبدأ التواضع؛ فقد هدّد الوجه الدافع عندما اعترض حرية قومه ولم يحترمها بتحطيمه لمعبوداتهم، كما هدّد الوجه الجالب للاعتراف بعدم اكتراثه بمشاعرهم، و قد ظهر في فعل الكيد والتحطيم، وكذا عبارات التهكم والسخرية قال الله تعالى على لسانه: ﴿فَرَاغَ إِلَى إِلِهِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (91) مَا لَكُمْ لَا تَنْطِفُونَ﴾ (الصفافات: 91-92) وقال أيضا: ﴿... بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِفُونَ﴾ (الأنبياء: 63).

#### الخاتمة:

في ختام هذا المقال أقف على مجموعة من النتائج لعل أهمها ما يلي:

- أن الاستراتيجية التضامنية اتّضحت أكثر في الحلقة الأولى من حلقات الدعوة، التي صور القرآن الكريم مشاهدتها في سورة مريم، بحيث كان سيدنا إبراهيم يحاور أباه بكل لين ورقة وتودد ومحبة، متخييرا للمحاورة أعذب الألفاظ وأرق الأساليب، ومراعيا قواعد التخاطب في جانبيها التواصلي والتعاملي معا، رغم أنه لم يلق غير القسوة والجفاء والوعيد والتهديد.

- بينما تخفّت هذه الاستراتيجية في الحلقات الدعوية الموالية للحلقة الأولى، عندما ما همّ سيدنا إبراهيم بدعوة قومه إلى جانب دعوة أبيه، فقد صور القرآن مشاهد الحوار الذي كان جافا وخاليا من عبارات التودد، مبرزا الوجه الآخر لشخصيته، و قد ظهر غير مهتم بعلاقته بقومه، وكأنّ استمرارها ليس أمرا مهما، بل اعتزم على اعتزالهم ما داموا على الشرك والضلال.

- ولهذه الأسباب لم يراعِ سيدنا إبراهيم صيغ التهذيب وبعض قواعد التخاطب، وآثر مخاطبة العقل على تحريك المشاعر، واختار الاستلزام الحوارية بدل التعبير المباشر.

- ولما تعنّت القوم وتمادوا في العناد والمكابرة أبرز القرآن الكريم شخصية أخرى لسيدنا إبراهيم، وكان ذلك في سورتي الأنبياء والصفافات، عندما تجلّت ملامح العنف والغضب، وتبدّت أمارات الأناة والصبر، فقاد كيدا وراغ باليمين ضربا، ومع تحطّم تلك المعبودات تحطمت أشياء وأشياء...، فلم يكن هناك ما يبرر التعاون والتأدّب والتواضع مع بيئة عمّها السخف وظللها الجهل، فعدت متشبّثة بتلابيب عقيدة التقليد.

- ولعلّ أبرز ما يتجلى من خلال تحليل قواعد التخاطب أن استراتيجية التضامن هي الحلقة الأولى التي انبني عليها المنهج الرباني، وهي حلقة لا بدّ منها في كل دعوة إلى الخير قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل-125)، وقال في موضع آخر: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ (طه-44).

- كما أنّ تحليل قواعد التخاطب في محاورته (عليه السلام) لقومه تكشف عن عزمه على هداية أبيه آزر من خلال ذلك التودد والإلاح، وعزمه على تحطيم الأصنام، واعتزال قومه إن لم يؤمنوا بالله. وهذا العزم والثبات

والصبر على الأذى كلها صفات جعلته من "أولي العزم من الرسل" قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ (الأحزاب: 7)

- وعليه فحري بالمسلمين اليوم أن يتأسوا بسيدنا إبراهيم في استراتيجية تخاطبه مع أبيه آزر ومع قومه، فيتحلوا بالعزم والثبات والصبر مع دعاة الحداثة الذين سعوا إلى تدجينهم، فكان لهم ما أرادوا من أقصر الطرق. وعليه فتأسيس علاقة التآزر والتضامن بتهذيب القول والانتباه من شأنه أن يمهد الطريق لإظهار الحق وتبليغه.

- إن قوانين الخطاب أو ما صنف بالتداولية من الدرجة الثانية رغم أنها تظل قاصرة ومبتورة أمام المنهج الرياني الذي انفراد بالكمال، فإنها مع ذلك استطاعت أن تكشف عن حقيقة العلاقات التخاطبية بين سيدنا إبراهيم وقومه، من خلال تلك الآليات الإجرائية التي أخضعت لحظات التلفظ للسياق النفسي، وكذا لسياق الموقف وما يتطلبه من ضرورة مراعاة قواعد التهذيب وقواعد التبليغ على حد سواء.

#### الهوامش:

- (1) ينظر: جورج يول: التداولية، تر: قصي العتاي، دار العربية للعلوم، بيروت، لبنان، ط1، 2010م، ص104.
- (2) عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب - مقارنة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، ط1، 2004م، ص256.
- (3) طه عبد الرحمن: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1998م، ص214.
- (4) عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، ص263.
- (5) مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط1، 2005م، ص33.
- (6) المرجع نفسه، ص ن.
- (7) محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، جامعة الإسكندرية، مصر، دط، 2002م، ص33.
- (8) مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب، ص33.
- (9) ينظر: طه عبد الرحمن: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص238.
- (10) المرجع نفسه، ص ن.
- (11) محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص34.
- (12) المرجع نفسه، ص35.
- (13) ينظر: طه عبد الرحمن: اللسان والميزان، ص240.
- (14) ينظر: محمد علي الصابوني: صفوة التفاسير، مج2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1999م، ص4.
- (15) ينظر: سيد قطب: في ظلال القرآن، مج4، دار الشروق، بيروت، لبنان، ط32، 2003م، ص1897.

- (16) ينظر: جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج3، تح: الشيخ عادل أحمد عبد الواحد الشيخ علي محمد معوض، مكتبة العبيكات، الرياض، السعودية، ط1، 1418 هـ / 1998 م، ص 207.
- (17) طه عبد الرحمن: اللسان والميزان، ص239.
- (18) جان سيرفوني: الملفوظية، تر: قاسم المقداد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سورية، دط، دس، 1998م، ص22.
- (19) عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، ص111.
- (20) سيد قطب: في ظلال القرآن، مج4، ص2385.
- (21) طه عبد الرحمن: اللسان والميزان، ص238.
- (22) سيد قطب: في ظلال القرآن، مج4، ص2385.
- (23) المرجع نفسه، ص2387.
- (24) نفسه، ص ن.
- (25) سيد قطب: في ظلال القرآن، مج4، ص2992.
- (26) ابن منظور: لسان العرب، دار المعارف، مصر، القاهرة، دط، دس، مادة "ولى".
- (27) المرجع نفسه، مادة "دبر".
- (28) محمد علي عبد الكريم الرديني: مباحث لغوية- الحركة الجسمية في القرآن الكريم، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، دط، دس، ص87.
- (29) ينظر: الشهري: استراتيجيات الخطاب، ص99.
- (30) سيد قطب: في ظلال القرآن، مج4، ص2387.
- (31) محمد حسن فضل الله: الحوار في القرآن- قواعده وأساليبه ومعانيه، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط3، 1405هـ/1985م، ص248.